

أدب القصة وتطورها

طبع الأديب «حسن رشاد» بمعهد التربية، رواية مصرية من تأليفه،
أسماءها «مخاطرات الشباب أو الأميرة الهندية»، وبها تصدير بقلم صاحب
«المعرفة» في «أدب القصة وتطورها»، وقد تناول فيه الأدب
الدرامي بالبحث والتحليل، فأثرنا نشره لقراء «المعرفة» فيما يلي :

نمبر

لعل كاتب هذه السطور من أزهد الناس في القصة، وأقلهم عناية بها، وتعلقاً بأمرها،
لا عن تصغير شأنها كما يبدو لأول وهلة، ولا عن قلة إيمان بأمرها في الثقافة، ولكن لأنه
يذكر - منذ سنوات معدودات - ذلك اليوم الذي ذهب فيه إلى أحد الناشرين حاملاً مسودات
رواية له أسماها «في ظل الغرام»، وقد كانت قطعة من ذات نفسه هو، وعصارة من صميم
حياته هو، فلم يعد إلى منزله بتلك المسودات، وإنما عاد، وكله آمال وأطماع وأحلام، أو قل عاد
وكله زهو وخيلاء، أليس الناشر قد قبل طبعها ونشرها فاشترها منه ليطلع منها آلافاً وآلافاً؟
وينشرها في جميع أرجاء المعمور متوجة باسمه «الكريم»؟ وأي غر يسمو على هذا؟ بل أي
سؤدد يزهو؟ أو أليس قد عاد وملء نفسه يقين بنزاهة الناشر، وملء يديه جنيته مصري هو
عربون الصدق في القول والإخلاص في العمل؟

لكن قدر فكان، وذبحت أحلام صاحبنا هباء، فقد كان ذلك الجنيه المقدس الأول
والآخر من نوعه في تلك الصفقة، كما كانت روايته الأولى والأخيرة من محاولاته، إن
جاز لنا التنبؤ. وماذا يعمل بإعزاء الناشر وهو ذو الحول والسلطان! اللهم لا شيء، فلتذهب
النفوس إذاً بما تحمل من آلام حيث شئت، وعلى الثقافة العفاء والفناء.

هذه الرواية التي مثلت معي - والتي اقتضيتها اقتضاباً، كانت كافية لتصديني عن التفكير
في معالجة هذا النوع من الكتابة الذي كنت أحب، بل كانت كفيلاً بصرف الجهد إلى غير
ما كنت أحب، وما أحسبني بالنادم على ذلك بالغ الندم، ولكن أحسبني حرمت لذة التفكير
والخلق والابتداع والابتكار، بل لذة التخيل والمبالغة والتهويل، بل لذة الاختلاق...
وأقول الاختلاق الذي أراه الدعامة الأساسية في خلق القصة.

أغراض القصة

ما الحياة الانسانية في مختلف أطوارها وتعدد اتجاهاتها إلا قصة من القصص ، فهي لا تخرج عن أن تكون مجموعة من الحوادث ، آخذ بعضها برقاب بعض ، إن تألفاً وإن تنافراً ، وهي إن ائتلفت أو تنافرت فسيلها في النهاية إلى غرض واحد ، وإن تعددت ألوانه ، ذلك هو إبراز كثير من المثل العليا للانسانية في شخص البطل الواحد أو الأبطال المتعدين . ولا يفيد قولنا هذا أن القصص لا يقصدها إلى تسلية النفوس ، وتلوية القلوب ، وترجية الوقت ، وصرف الشعب عن الشعب أحياناً ، أو دعوته إلى الثورة أحياناً ، وإنما يؤدي قولنا معنى ذلك كله ، كما يؤدي معنى اتخاذها سبيلاً إلى بث الآراء العلمية ، أو المذاهب الاجتماعية ، أو النزعات الدينية ، أو وصف الحوادث والسير والتاريخ ، وشرح العوامل النفسية لكل عصر وجيل .

وما أظنك تجهل تلك القصص الشعبية ، التي ذاعت في آخر العصر الأموي ، وفي غضون العصر العباسي ، مما امتلأ به كتاب « ألف ليلة وليلة » من قصص : قمر الزمان ابن الملك شهرمان ، والسندباد البحري ، وعجيب وغريب ، ومدينة النحاس : ثم فيروز شاه وأضرابها مما أخذ عن أصل فارسي ، أو ما جاء في قصص عنتره ، وبكر ، وتغلب ، والزباء ، والزير سالم ، وسيف بن ذي يزن ، وعلى نور الدين ، وذات الحمة ، وحسن البصري ، وسلطنة دياب ، وأبي زيد الهلالي ، والزنادي خليفة ، وغيرها مما أخذ عن أصل عربي ، ثم ما جاء في « كيلة ودمنة » مما أخذ عن أصل هندي . والكتب المقدسة عامة والقرآن خاصة ، خير شاهد عدل على هذا ، والقرآن نفسه زاهر بقصص الأنبياء والمرسلين وغيرهم ، بمن لا نغيب عن ذهن القارئ أحداً منهم .

كان الغرض إذاً من جل هاتيك القصص الشعبية الوضعية ، المحتوية على روائع الاستمرار ، وبدائع الاختيلة ، وعذب الأحاديث ، وبلاغة الحدث ، تخدير أعصاب الشعب ، واتخاذها لعقوله سحراً ، وبشها في أعصابه سكرأ ، وفي قلوبه فتنة ، وإرسالها لـ « غلا عما يدور في قصور الخلفاء والأمراء حول الخلافة والامارة » وما يجري مجراها من أسرار . وعما كانت يدبر فيها من مكائد ومؤامرات ، وما يقام بينها من مجون ومهازل ، مما تراه مبسوطاً في عيون كتب الأدب العربي وموسوعات السير والتاريخ .

كما كان الغرض من بعضها - وهذا قليل - صوغ العلوم والفنون والآداب والفكر الدينية والنزعات الفلسفية في أساليب مشوقة ، وعبارات سهلة سلسة . تحمل في غضوناتها الحكمة العالية ، والمأثورات المختارة ، والمذاهب الجديدة . مما كان لوجوده فيها أثر وأثر في نفوس العرب ، بل في نفوس الأمم جميعاً ، مصبوغة بصيغة البيئة ، مطبوعة بالطابع

الزمانى والمكانى لكل أمة من الأمم ، خضوعاً لقانون الوجود الذى لازمته هذه الظاهرة الطبيعية ، وأعطى بها ظاهرة القصة ، التى لا يمكن تحديدها بعمد ، أو إرجاعها إلى عصر ، فقد لازمت الانسان فى جميع عصوره وأطوار حياته منذ الخليقة حتى الآن .
وما قصة آدم وحواء إلا دليلاً نسوقه فى التدليل على صحة ما نقول .

مزايا وعمى بعض المستشرقين

وهذا نفسه نسوقه دليلاً فى تنفيد مزاعم بعض أولئك المستشرقين ، الذين يرون أن القصة لم توجد فى الأدب العربى ، وزعمهم هذا يحمل أدلة تكذيبية بين طياته ، فإن القرآن حافل بتلك القصص كإفدناه ، وهى وإن كانت لا تمثل القصص الحديث ، فقد كانت قصصه نموذج القصة العربية الإسلامية الأولى ، كما كانت هذه القصص تسماً وظيفية للقصاصين المسلمين ، ككعب الأحبار ، وعبد الله بن سلام ، والحسن البصرى ، ووهب بن منبه ، وتيم الدارى ، وغيرهم ممن كانوا يجلسون إلى الناس فى المساجد منفصلين مجملين ، مفسرين مفسرين ، مهولين ابتغاء العبرة ، متمثلين رجاء الموعظة .

وفى كتب التاريخ والأدب الشيء الكثير من أخبار القصاصين الرسميين ، الذين كانوا يعيّنون بأمر الخليفة أو والى : وهذا سليمان بن عمرو النخعيّ تولى القصص الرسمى فى عام ٣٨ للهجرة ، فأين كان القصاص الغربى ؟ وأين كانت القصة الغربية فى ذلك العهد ؟

ثم أليست قصص ألف ليلة وليلة من صنع العرب ، أو من آثار من اندمجوا فى سلك العرب ؟ أو ليست هى بنفسها التى ظلت قروناً طويلة حتى عهد قريب ذخيرة القصص الغربى ومعينته ؟ فإن أبيت إلا الجحود والانكار فاستمع إلى « براون » يقول فى كتابه (تاريخ الفرس الأدنى) : « ولدت القصة فى الهند ، ودرجت فى فارس ، وترعرعت فى بلاد العرب التى وجدت سرعى خصباً فيها ثم انتقلت إلى الغرب بفضل العرب الذين يعتبرون بحق أساتذة هذا الفن وشيوخه » .
وهذا (جين فرى) يقول : « لست أعرف كم يكون مدى جهلنا بأساليب الحياة الاجتماعية ، لو لم تصلنا القصة التى تعلمنا أصولها على أيدي العرب » .

وهذا (هاردى) يقول : « كلما تخيلت ذلك الرجل البدوى جالساً إلى قبيلته فى خيمته ، يحمل الزبابة التى ينطقها ببديع ألحانه ، وطيب أثماره ، وحلو حديثه ، ورأى قصصه ، وددت لو دارى فى تلك فرج إلى تلك العصور السحيقة ، لأمتع النفس بحال الفن القصصى الساذج الذى لا تكاف ولا تعمل فيه » .

أدب القصة الرسمى فى أوروبا

وجدير بالذين ينكرون على الأدب العربى وجود القصة وأدبها الدرامى فيه بالمعنى المقصود اليوم ،

أن يعلموا أن ذلك النوع نفسه لم تعرفه أوروبا إلا في أواخر القرن التاسع عشر، أي منذ نصف قرن تقريباً.

فقد كان المبدأ الأدبي السائد قبل أواخر القرن التاسع عشر، هو المذهب الرومانتيكي، ذلك المذهب الذي أعفى الأديب من التقيد بالأوضاع والمقاييس الكلاسيكية، ودفع به إلى تفضيل الشعور على العقل، والغريزة على الثقافة، والعاطفة على التمييز وحسن الإدراك، وغير المحتمل على المحتمل، بل ذهب به إلى الاعتقاد بأن الفرد أهم من الجماعة، وأن الفضيلة والعقل في الأدب لا يفضلان الشعور والهوى.

ونستطيع أن نلخص ذلك المذهب الرومانتيكي في أنه يدعو إلى شيئين اثنين: الشخصية Individualism والمثالية Idealism.

أما الحالة الاجتماعية فلم تكن قد تطورت إلى ما هي عليه الآن؛ فالمرأة كانت ولا تزال معتكفة في دارها، تقوم بشؤونها المنزلية، خاضعة تمام الخضوع لزوجها ووالديها. كذلك كان الأبناء لا يستطيعون الخروج عن طاعة والديهم، بل كثير أمّا يتحكم الآخرون في إرادة آبائهم ويطيعونهم بالطابع الذي يريدونه، غير حاسبين لميولهم ونزعاتهم أي حساب. ولم يكن الناس قد نبذوا الدين ظاهرياً بعد في شؤونهم المدنية والاجتماعية، فكان لابد لكل زواج أن يعقد في الكنيسة، وأن يبارك القسيس العروسين، ويقوم بكل ما يتطلبه هذا الحبل من طقوس دينية. هذا علاوة على أن الأدباء قلما كانوا يطلقون لأقلامهم العنان، ويخوضون في المواضيع التي كانت تعتبر خارجة على الناموس الأخلاقي لذلك الوقت.

بدأ المجددون أمثال: برنسلي وابسن وبتلر ونيتشه حملتهم على تناليد ذلك العصر وابتدأوا عصر الهدم الذي انتهى تقريباً بنهاية القرن التاسع عشر. فنار هؤلاء على مساوىء المذهب الرومانتيكي وما يتطلبه من إغراق في الخيال وبعد عن الحقيقة، وما ألقاه في روع الناس من تعلق بالمثالية ونزوع عن الصدق في تصوير الحياة الإنسانية كما هي، دون مغالاة أو إغراق؛ فكان (جوستاف فلوير) و (اميل زولا) في فرنسا و (تشيكوف) في روسيا، يمهّدون السبل أيضاً لنشر ذلك المذهب الجديد مذهب الواقعية Realism (١).

ومن هنا يتضح للقارئ أن أدب القصة الدرامي لم يكن معروفاً في أوروبا أيضاً إلا منذ عهد قريب. وأنها سبقتنا خاصة في هذا الميدان منذ قليل.

أما قبل أن يعرف هذا النوع، فقد كانت القصة العربية موجودة في الأدب العربي، في جميع عصوره، وفي مختلف دويلاته؛ كانت موجودة في الرسائل القصار، وفي الرسائل الطوال، تدرجت من المثل الجاهلي إلى الحكمة العربية، ومن الحكمة العربية إلى الأقصوصة

الإسلامية ، ومن الأقصوصة الإسلامية إلى القصة الشرقية العامة التي تتلون في كل بلد تحمل فيه بلون أهله وتتناثر بعاداته وتقاليده ، وتنطبع بالطابع الزماني والمكاني الخاص .

وذلك حق لا مريبة فيه ، لأنه منطق الحياة البشرية ، وهو لا يقصر على لغة دون لغة ، ولا على أمة دون أمة ، وإنما يختلف باختلاف العقلية والجنسية ، ما دامت القصة تؤلف من حوادث الأفراد الذين يعيشون في المجتمع ، فتربط بين أمسهم ويومهم ، لتلائم بذلك بين ماضيهم وحاضرهم فيتخذون من الأول معياراً للمستقبل ، ويعدون من الثاني عدة للغد القريب .

القصة المصرية

والآن وبعد أن انتشرت في أوروبا ذلك الأدب القصصي الدرامي ، فقد بدأت النهضة الأدبية في مصر تخطو خطوات نحوه تبشر بمستقبل باهر ، لأنها نتيجة جهود الشباب المنفقين الذين نهلوا من مناهل الغرب ، وتأثرت مشاعرهم بمشاهد الحياة فيه ، وكان لتوفرهم على الدرس والاشتغال بمختلف فنون الأدب أكبر الأثر في ازدهار النهضة بما أدخلوه عليها من تجديد وثرورة . وإنك لتأس آثار هذه الجهود في البحوث والترجمة والتعريب ، بما يعطينا الدليل على أننا لم نصل بعد إلى حد التطور الفكري الذي وصلت إليه أوروبا ، وما يساق ديبالاعلى أن العقلية المصرية التي طغت الثقافة الغربية على تفكيرها ، لم يحن لها الوقت بعد لتبدع وتبتكر ، وأن نهضتنا الفكرية تقف من نهضة الغرب موقف التابع المتبوع ، ونعتمد كل الاعتماد على الانتاج الغربي والثقافة الغربية .

لسنا ننكر ما للترجمة من قيمة وفضل ، ولكننا نرى لها في مصر آثاراً أبعد ما تكون عن النوق وعن الخير والجمال ، وأقرب ما تكون إلى التشويه والنقص والجمود ، ولعل أكبر ما خلفته الترجمة والتعريب في النقوس هي تلك العقيدة الراسخة التي تدفع المصريين إلى أن ينظروا إلى المؤلفات القومية تلك النظرة التعسفية ، وتحملها أعباءاً من الزرارة والتحقير والاستهتار .

فالأديب المصري لم يرزق الخصال التي تؤهله للاضطلاع بأعباء التأليف والابداع الموقوفة على أدباء الغرب ، ممن اجتمعت لهم مواهب خاصة وألوان من الذبوع والشهرة متعددة ، مما لم يتح لمصري منا حتى اليوم .

وتبدو هذه الظاهرة بارزة قوية في الأدب الروائي والمسرحي ، فما من مؤلف إلا وهو ناقل أو محاك ، ومن حق القراء علينا أن نستثنى فئة من القصصيين تعد على أصابع اليد ، كما نستثنى مثل عدد من المسرحيين ، ممن انفلقوا - في حرية واستقلال - يحاولون تهديد هذا الجانب المقفر بشيء من الخصب والانتاج ، ولكن جهودهم في الحق جهود محدودة ، لا تمتد إلى دائرة

ضيقة منقطة بأعباء وتقاليد صارمة : فكثيراً ما تسقط الرواية المحلية سقوطاً شنيعاً لتفاهة موضوعها ، وإذا قدر لها النجاح ، فنجاح مؤقت لا يدوم طويلاً ، ذلك لأن الرواية المحلية لتفاهة موضوعها وترزع حوادنها ، لا تستطيع أن تؤثر في الجماهير التأثير الذي يمكنها من العيش في قلوبهم طويلاً ، ومن ثم كان كساد روايات الأدباء من الكتاب البارزين ، ومن ثم استقرار في الأذهان أن العقلية المصرية لم ترزق القدرة على الخلق والابتكار ، وأنها فقيرة في تخيلها وتفكيرها ، فقيرة إلا في الغوص وراء الألفاظ الجذلة ، والتعابير المنمقة ، والأساليب الممتعة الطلية .

المؤلف المصري والتقاليد

والواقع أنك حين تقرأ الرواية المحلية تشعر بشيء من التذمر ، وبشيء آخر من الملل ، رغم متانة الأسلوب وروعة الانشاء التي يبتدعها الكاتب ويتمدها بالترويق والتنميق والحلية اللفظية ليعطي بذلك كله ضعفها في الخلق والابداع والحبك ، وهي محاولة خاطئة تيجتهد أنصراف الجماهير عن المؤلفات المحلية والنظر إليها في غير اهتمام ، فيلحق بها البوار ويصيبها الكساد . والواقع أن المؤلف المصري واضح العذر ، لأن عاداتنا وتقاليدها لا يمكن أن تنتزع منها ما يصلح أساساً لأدب القصة ، ومن هنا نرى ضعف الأدب الروائي وفقره وتفاهة موضوعه في مصر بخلاف الحال في الروايات الأجنبية ، لأن في مكتبة المؤلف الغربي أن يضيف إلى الحقائق المتشعبة ومظاهر الحياة وصورها المتعددة ألواناً مختلفة مما يجود به عليه خياله من الوقائع والظروف المتنوعة المحيطة به ، فتظهر روايته مملوءة بما يجتذب إعجاب الجمهور وينال تقديره واستحسانه .

ولقد حاول بعض أدباء مصر النابهين النهوض بالأدب الروائي ولكنهم باءوا بما لم يكن أحدهم يتوقعه لهم من غير العارفين بالحقيقة ، فتحطمت جهودهم - وجهود الذين عملوا على إخراج إنتاجهم على الشاشة البيضاء - على صخرة الحقيقة التي لم يكن ثمة مفر لهم من الاصطدام بها ، ذلك لأنهم حاولوا وسط دائرة ضيقة محدودة تحوطها اعتبارات وتقاليد لا سبيل إلى الخروج عليها أن ينتجوا ، فجاء إنتاجهم مقعراً من كل مظاهر الفن الروائي ، فتراهم ضعيف الحبك والتصرف ، ضائم العقدة ، مفتعل المفاجأة .

فهمة المؤلف المصري عسيرة كما ترى ، لأن عقله وتفكيره يجب أن يوفق بين رغبة الجمهور والناشرين ، وبين الواقع الذي لا يمكن أن يتخطاه . لذلك لم يجد مؤلف روايتنا هذه غضاضة في أن يطلق نفسه من هذه القيود ومخالفة السنة التي جرى عليها أكثر المشتغلين بالأدب الروائي .

فإذا كان لنا ما نقوله في هذه الرواية، فهو أنها وإن كانت تتفق وميول الكثيرين وأمزجتهم، فقد حرص المؤلف على ألا يخل بواجب الأدب التريه الشريف، الذي يعف عن تملق الجماهير أو إرضاء فئة دون أخرى، وهو إذ يتقدم بها إلى حضرات القراء، لا يقدمها لهم على سبيل اللهو بما فيها من حوادث ومواقف - أو تزجية الوقت بما ضمنها من مفاجآت، وإنما يفعل ذلك ليكشف لهم بين ذلك كله عن المثل العليا الانسانية في ناحية من نواحيها السامية. وما على القارئ إلا أن يتجه إلى المثل الأعلى الذي تضطرم به نفسه ويملؤها بنفحات الحرارة والحماس.

وإذا كانت ظروفنا وتقاليدها قد ألجأت المؤلف وغلته عن خلق الحوادث تحت سماء مصر، فقد حرص على أن يضمن هذه الرواية ما يعلى من شأن مصر ويظهر بجلاء ووضوح صفات أبنائها وحميد خصالهم ونبيل شعورهم وسامي عواطفهم.. ومن اليوم إلى أن يعمل الكتاب الذين يتصدرون لزامتنا على كسر هذه الأغلال الثقيلة وتشجيع الخلق والابداع ورفع مستواه، وإلى أن تنقضي ذمم القائمين بالنشر الذين لا يرقبون إلا ولا ذمة، أو تتولاه فئة متنفذة رائدها المنفعة العامة وخدمة الأدب لذاته... من اليوم إلى أن تتحقق هذه الأمنيات سيظل الأدب الروائي على ما هو عليه مريضاً مقعداً لا يتقدم إلى الأمام خطوة.

وأريد أن أتهنئ من هذا التصدير إلى تقرير أمر واقع، هو أن النهضة الأدبية في مصر - رغم ذلك كله - قد بدأت تؤتي ثمارها، وأن من الحق علينا أن نشجع الناشئين في الأخذ بتلك السبيل، حتى يتم لنا أدب حى، تفاخر به ونباهى.

وإذا كان من الواجب على أن أقرر شيئاً آخر في صدد هذه الرواية، فهو أن بها عيباً واحداً، ذلك هو الغموض والابهام في الفصل الأول وبعض الفصل الثانى، وهو العيب الذى أراه جديراً بتقدير المؤلف، لأنه لم يقصد منه إلى تلهية القارئ، دون ما تفكير أو إنعام نظر، أو إعمال روية كما قدمنا، وإنما قصد أن يترك للقارئ مهمة الاستنتاج والاستنباط، وهو ما أعده تجديداً في كتابة القصة المصرية، ومحاوله موفقة في إدخال هذا العنصر إلى ثروتنا العربية، مما تدعو الحاجة إليه.